

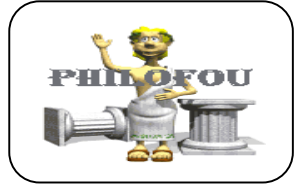


المعهد الثانوي الخاص النخبة - مسألة الفعوصية و الكرتية



"إنهم يخرقون قواعد اللعبة عندما يصبح الموت هو رهان اللعبة، وبذلك فالقواعد الجديدة للعبة ليست ملكنا إنما نسعى الى أن نحمل الإرهاب أى معنى، وأن نعثر له على أى تأويل، لكنه خلو من المعنى، ووحدها جذرية المشهد، ووحدها قساوة المشهد هي المبتكرة، والمتعذر تبسيطها. إن مشهد الإرهاب يفرض إرهاب المشهد"

جان بودريار: ذهنية الإرهاب - نومند 3 نوفمبر 2001



مرحلة البناء

لقد شكّل مفهوم الهوية إشكالية¹ غير قابلة للتجاوز في الوضع البشري الراهن، و هذا مردّه التعثر الذي يصاحب المفهوم من جهة أو يصاحب واقع المفهوم من الجهة المقابلة، و كأننا نتعامل مع جسيم تمديد موقعه يفقد القدرة على ضبط سرعته، و ضبط السرعة يؤثر في مسار الجسيم و موقعه² الأمر الذي لا يعنى عدم القدرة على عقلنة هذه الظاهرة أو تفكيك عناصر تواجدها في المجتمعات البشرية. المشكل إذا لا يفتزل في واقع الهوية أو رانها فماسب بل يشمل كذلك المفهوم ذاته، إذ يبدو مفهوما غامضا ومعقدا ومتشعبا، برز ممركا للتمرر، أو عامل وحدة للجماعة-من جهة- أو عنصر تمايز وتباعدا وافتلافا عن الآخر من جهة ثانية؛ هذا المكون "الثابت" ، كان أمانا المنظم الأساسي لإعادة بناء العلاقات بين البشرية، وأمان أفرى العائق الأساس أمام مسيرات التحول في تاريخ الأقسام والشعوب.

و يعكس الحديث عن الهوية اليوم وضعا فاصلا، هو: تصاعد أهمية الأقليات، من جهة و يكشف من جهة ثانية عن نزعة عميقة للمدائنة، ترتبط بمنطق الانتصار للفردانية والإعلاء من شأن الفرد. و قد اكتسب هذا المفهوم اليوم مجمل العلوم الانسانية، و لكن لكل نجاح سلبياته؛ فنجام انتشار مفهوم ما يكون دائما على مساب فهم مقيقى للدلالة و تفهم للواقع. ولذلك لا معنى للحديث عن المفهوم في غياب تفهم و تمثّل للواقع، و على هذا الأساس يجب أن يهتم السؤال لا بالمفهوم وإنما براهينته³ فبماذا نفسر هذا الاهتمام اليوم بمسألة الهوية؟ بمعنى ما الذي يشرع للحديث عن الهوية اليوم؟ وهل من منفذ يحررنا من مزلق القول بالهوية أو مفاطر الفعوصية في علاقتها بالآخر؟ كما يضعنا المشهد الفكرى المأزوم أمام إشكالية مقيقية مطروقة وسؤال ملخ مفاده: هل من مؤامرة فكرية مقيقية لعضارته ما في مواجهة الفعوصيات الأفرى؟؟؟

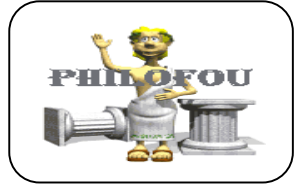
مرحلة البلورة

من الصعب تحديد تاريخ الهوية، إذ ليس للهوية تاريخ. و لا تفتزل الهوية في مجمل الارشادات و المعلومات الفاصلة بالذات، التي تمتويها بطاقة الهوية، إذ أن البطاقة التي أمهلها، يحملها سواى، ليعرف بها، أو لأعرف بها، ليست الهوية، إنما سميت وتسمى كذلك من باب التجاوز ليس إلا. الهوية ليست الوجه وسنة الولادة والعلامات الفارقة... هذه ممددات فاربية، ثمّة ما يعلو ويسمو على هذه المفردة، يفص بينالوجيا الذات، مقيقة النفس، نفسى التي كوئتنى، وتكوئنى وأكوئنها وأكوئنها، كيف تتشكل على صعد مختلفة؟ لا حدود للهوية! إنها الذات و

¹ - إننا نفضل لفظة الإشكالية على لفظة المشكلة، و ذلك مقصود عندنا لكون المشكلة يمكن الوصول بشأنها إلى حلّ يلغيناها في حين تكون الإشكالية هي النظرية التي لم تتوفر إمكانية صياغتها، فهي توتر ونزوع نحو النظرية أي نحو الاستقرار الفكرى.

² - مشكل الهوية يذكرنا بمشكل هيزنبارغ و مبدأ اللاتعين أو علاقات الارتباب.

³ - ران مشكل الهوية لا ينفي اهتمام الفلسفة حتى قبل سقراط بهذا المفهوم، لكن لاشك أن الإشكالية المعاصرة لمفهوم الهوية لا تعود في أصلها إلى التراث الميتافيزيقى. فنجد مع بارميندس أو هراقليطس حديثا عن الهوية و الغيرية بمعنى : هو ذاته -أو عينه - والآخر (le même et l'autre) إن موضوع الهوية في الفلسفة غيره في علم الاجتماع. فيعنى في الفلسفة الشيء ذاته، ونترجم عن ذلك بقولنا: الشيء "ج" هو "ج"، والمقصود به ثبات كنه الشيء واستمراره. لكن يشكل على ذلك التغيرات التي تطرأ على هذا الشيء: هل تمس جوهره -أو هويته- أم لا؟ ومبدأ الهوية يشكل مع مبدأ الثالث المرفوع أساس العقلانية القديمة.



وعى الذات و المعنى الذى يضيفه على الأشياء، إنها " الاطار الايثيقي " الذى يحدد الوعي و المعنى على حد عبارة شارل تايلور، كل تمديد لمعدّد فيها يعتبر محاولة إجرائية بغية الاطاطة بها والهوية تفيض على التمديد. و لا أحد بوسعه تحديد فاصيات الهوية، و لكن من المفيد أن نقدم بعض المعطيات والمقومات التى تجعلنا نتلمس الدلالة، و إن كان هذا التلمس مجرد تأويل للمفهوم.

الدلالات العلمية للهوية:

حتى لا نهضم فق من تحدث عن الهوية و آثار مشكل المفهوم – بدعوى الانطلاق من مشاكل الراهن- سنحاول أن نتتبع فى قراءة برقية التوظيف العلمى لهذا المفهوم، فاصّة و أننا أكدنا فيما تقدم اكتسام هذا المفهوم مجمل العلوم الانسانية.

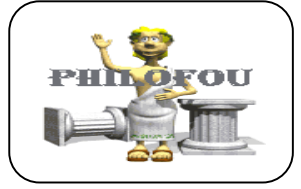
أ- الدلالة البسيكولوجية لمفهوم الهوية:

لقد قام عالم النفس إ. إريكسون⁴ بدور مركزى فى انتشار استخدام هذه الكلمة وتوسع شعبيتها فى العلوم الانسانية. ففى الثلاثينات عمل إريكسون فى المصميات الهندية لقبائل السيو بدا كوتا الجنوبية وفى قبيلة يوروك بكاليفورنيا الشمالية، ودرس "الاجتاث الثقافى" لهؤلاء الهنود المعرضين لموجة الحداثة. و أزمة الهوية – هذا التعبير الذى نقرؤه اليوم فى كل مكان بدلالات مختلفة⁵... هو من صياغة إريكسون- تتطابق مع تحول يقع فى مسيرة تطور الهوية؛ والأزمة الأبرز هى تلك التى تحدث فى المراهقة، لكن يمكن أيضاً أن تحدث فى مرحلة لافقة حين يتعرّض الشخص لصعوبات فاصّة.

ب- الدلالة السوسولوجية لمفهوم الهوية:

بين فيليب كليزون أن هنالك مفاهيم مجاورة لمفهوم الهوية، تمكننا العودة إليها من معالجة مشكل المفهوم فى مجالات أخرى كعلم الاجتماع مثلا، فعن طريق استعارة مفهوم التكنه **Identification**⁶ من علم النفس يمكن ان نتحدث عن الدلالة الاجتماعية لمفهوم الهوية. و بالفعل نجد مثل هذا الربط فى فكر كوردن أليور، حيث ربط أليور مفهوم التكنه بعلم الاجتماع عبر نظرية الأدوار، وكذلك عبر نظرية "الجماعة المرجع"⁷، و هكذا فسّر نيلسون فوت، فى بداية الخمسينات، " التكنه " باستعارة الفرد الواحد لهوية واحدة أو لسلسلة من الهويات. و "التكنه" عند نيلسون فوت هو الصيرورة التى تمكن من فهم لماذا نبعث عن القيام بدور ما. أما نظرية مجتمع المرجعية أو "الجماعة المرجع" فقد كسبت ائتراماً بين المشتغلين بعلم الاجتماع، فصوصاً بتأثير روبر ميرتون، كما ساهمت فى توسيع شعبيّة الهوية ومشتقاتها.

⁴ إريكسون أمريكي من أصل ألماني، وهو من أهم رؤوس تيار الثقافة داخل التحليل النفسى. له دراسة أخرى عن: "المراهقة والأزمة: فى البحث عن الهوية"، توفى سنة 1994.
⁵ تحدث شارل تايلور من جهة عن مفهوم أزمة الهوية باعتباره يحيل على واقع فائض الهويات و تعددها، ففي غياب المرجع الأكيد و الوحيد الذى تعود إليه الذات اليوم نتحدث عن حالة الضياع و التيه التى تميز إنسان ما بعد الحداثة. و نحن نميز بين مفهوم فائض الهويات الذى يكشف مشكل الكثرة و التنوع، و بين فائض هوية وهو المعنى المرتبط بمنطق الهوية البسيطة التى سنتحدث عنها لاحقاً، و الذى يحيل بعامة على فكرة الانغلاق و التعصب، وهذا يعنى أن فائض الهويات يحيل على الأزمة الربيبية المتعلقة بالهوية [التيه + الضياع] أما فائض الهوية فهو يحيل على الأزمة الدماغية الخاصة بالهوية، إذ تنتج الأزمة الأولى هوية مفككة لامبالية فى حين تنتج الأزمة الثانية هوية متعصبة انفعالية.
⁶ التكنه Identification هو تحقيق الذاتية أو تحققها، أي اكتساب هوية معينة، هذا الاكتساب عند فرويد يقع بنوع من التقليد، حيث يجد الطفل نفسه فى الآخر، فيتمثله لكن المقصود هنا -أعني فى علم الاجتماع- هو توصل الفرد إلى اكتساب هويته عبر الجماعة بتمثل منظومتها من القيم أو بالقيام داخلها بدور محدد.
⁷ مجتمع المرجعية أو "الجماعة المرجع تعني الجماعة التى يحدد الفرد هويته عبرها وفى إطارها، فيستعير قيمها ومعاييرها بدون أن يكون بالضرورة عضواً فيها.



و لكن بالرغم من هذا المضور المكثف في علم النفس و علم الاجتماع لم يحتل مفهوم الهوية أهمية فاسمة في معجم علم الاجتماع إلا بواسطة "التفاعلية الرمزية"؛ وهي المدرسة التي تبحث في الطريقة التي تشكل عبرها التفاعلات الاجتماعية -وبنا. على أنساق رمزية مشتركة- وعى الفرد بذاته. وبالرغم من ذلك لم يستعمل التفاعليون في البداية هذا اللفظ. ولهذا تفسير قريب، ذلك أن الآباء المؤسسين لمنهج المدرسة -شارل كولي وهورج ميد⁸- تكلموا عن "الذات"، "Soi" وهو المصطلح الذي راج بين التفاعليين في بداية الأمر. ثم انتقلت التفاعلية الرمزية من استعمال اصطلاح الذات إلى استخدام اصطلاح الهوية بدءاً من سنة 1963، وذلك حين نشر إيرفين جوفمان -أحد رواد هذه المدرسة-: "آثار الجرام: ملازمات على أسلوب التعاطي مع هوية مدمرة"⁹ وفي السنة ذاتها شهر بيتر برمر مفهوم الهوية وساهم في انتشار استعماله، بكتابه: "دعوة إلى دراسة علم الاجتماع"، وذلك حين فضّص له فيّزاً هاماً في تقديمه لنظريات الأدوار والجماعة المرجعية، وكذا من فلال المقاربة الفينومينولوجية التي طورها في كتابه هذا.

في القول بالفصويّة: الهوية و الأقليات:

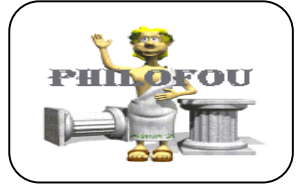
إذن فانتشار كلمة الهوية وتوسع استخدامها في علوم الاجتماع بالولايات المتحدة كان في الستينات. ثم إن هذا الاستعمال كثر وتوسع وانتشر بسرعة كبيرة حتى صار من المستحيل -كما قال ب. كليزون- أن نحدد المعنى الدقيق لكل استخدام فاص لمفهوم الهوية. ثم إن الوضع السياسي بأمريكا ساهم بدوره في ترسيخ اصطلاح الهوية، وفرضه على لغة الإعلام كما على التحليل الاجتماعي والسياسي. ذلك أنه في نهاية الستينات برزت الأقلية الأمريكية من أصل إفريقي، فصوصاً بظهور منظمة "الفهود السود" سنة 1966. ثم مدت أقليات أخرى مذو مر كة السود مطالبة بالاعتراف بفصويتها. وهذه الظرفية أنتجت "صوهة هوية مقيقة" في سنوات السبعينات. وكما لامظ ذلك عالم الاجتماع الأمريكي روجر بروباكر¹⁰، فإن "تجربة الأمريكيين من أصل إفريقي مع قضية "الاثنية" باعتبارها تصنيفاً يفرض نفسه، وفي الوقت نفسه باعتبارها تحديداً ذاتياً للهوية... هذه التجربة كانت فاسمة ليس فقط لنفسها وفي دافل مدودها الفاصّة، بل أيضاً في تقديمها لنموذج الامتجاج على أساس من الهوية، وهو النموذج الذي استفادت منه جميع أنواع الهويات، بدءاً من تلك التي تتعلق بالجنس أو بالافتيار الجنسي، واختها، بتلك التي تتأسس على "الانتماء الاثنى أو العرق.

"كان انتشار مطالبات الهوية أمراً سهلاً بسبب الضعف النسبي المؤسسي لأحزاب اليسار بالولايات المتحدة، والذي تزامن بدوره مع ضعف التحليل الاجتماعي والسياسي القائم على اصطلاح الطبقية. ورغم أنه يمكننا أن ننظر إلى الطبقة الاجتماعية نفسها باعتبارها هوية، تبقى حقيقة أن ضعف سياسة الطبقة بالولايات المتحدة (مقارنة بأوروبا الغربية) أمر شكّل تربة جد خصبة وحقلاً حراً لتطور الاحتجاجات المؤسمة على الهوية". ر. بروباكر: "ما وراء الهوية"، بمجلة أعمال البحث في العلوم الاجتماعية، عدد 139، سبتمبر 2001.

⁸ - كولي عالم اجتماع أمريكي، تخصص في دراسة العلاقات بين الأفراد في إطار المجموعة. توفي سنة 1929. وميد فيلسوف وعالم اجتماع أمريكي، درس تطور الفكر واللغة. توفي سنة 1931 من كتبه: العقل والأنا والمجتمع.

⁹ - إ. جوفمان عالم اجتماع أمريكي توفي سنة 1982: تحدث عن "العلامة والهوية الاجتماعية"، ضمن كتابه: "الندوب: الاستعمالات الاجتماعية للعوائق".

¹⁰ - ر. بروباكر: "ما وراء الهوية"، بمجلة أعمال البحث في العلوم الاجتماعية، عدد 139، سبتمبر 2001.



لكن -بعض النظر عن هذه المؤثرات التاريخية الممددة- كيف لا نرى كذلك في نجاح مصطلح الهوية ترجمةً لاتجاه تاريخي أكثر أهمية وشمولاً؛ أعنى تأكيد الفردانية؟ وهذه أطروحة عدد كبير من الباحثين في فضاءات الحداثة التي نعيشها. هكذا يلاحظ عالم الاجتماع جون كلود كوفمان في كتابه "ابتكار الذات"¹¹ أن "الهوية صيرورة ذاتية للحداثة ومرتبطة تاريخياً بها. لم يكن الإنسان المندمج في مجتمع تقليدي يطرح مشاكل الهوية كما نفعل نحن اليوم. رغم أنه عملياً كان يعيش فردانية". إننا إذا نلج عصر الهويات لأنها لم تعد من البدايات التي تبرزت عدم المطالبة بها، بل هي إشكال لأشكال متغيرة يلزم بناؤها وتأسيسها وانشائها. فأصبح على الشخص نفسه أن يؤسس ذاتيته، وهذا يثير مشاكل حقيقية. كما يشير لذلك عالم الاجتماع آلان إيرنبرغ¹² لقد بيّن في كتابه "التعب من الذات" كم هي مضنية مسيرة البحث عن الهوية: إن الاكتئاب هو بلا ريب العرض المرصى الأشد بروزاً لهذه الصعوبة الجديدة في التمديد الشفصى للهوية. هكذا ظهر بسرعة الجانب السلبي لهذه الثورة؛ فللمرية ثمن غالٍ. وفي الواقع يتميز الدفول فيما يسميه أنطوني بيدن بـ "الحداثة المتقدمة"¹³ بدرجة متزايدة من التأمل؛ فالناس يتساءلون عن كل شيء، مما يجعل سلوكهم متردداً باستمرار. وفي هذا يوجد مفتاح الهوية بالنسبة لكوفمان الذي يقول: "يندرج الفكر المسؤول ضمن منطق الانفتاح، فهو يحطم اليقينيّات، ويشكك فيما اعتبر مكسباً نهائياً. على فلاف ذلك لا تكفّ الهوية عن جمع الشظايا وتركيبها، فهي نسق مستقر يحفظ المعنى ويسّيجّه، ونموذجها هو الكلية" إنما لا يمكن للهوية أن تؤدي هذه الوظيفة إلا بشكل مؤقت¹⁴ إن أول ما يعنيه مفهوم الهوية يكون أول مأفذ عليها، فالهوية بهذا المعنى هي العودة القوية للفرد، وهذا يمكن أن يشكل مشكلة مقلقة، كشف البعض منها شارل تايلور، و غير بعيد عنه تحدث كلود ليفي ستراوس¹⁵ عن الميول النرجسية للهوية الفردية بالقول: "إن إيماننا المستمر بـ(فكرة الهوية) ربما لم يكن إلا انعكاساً لعالة مضاربة من المفروض ألا تتجاوز بضعة قرون. لكن ها هي أزمة الهوية الشهيرة -والتي كثر عنها الكلام- تكتسى معنى جديداً..".

في الواقع يعكس نجاح المفهوم العودة القوية للفرد في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية. فالفرد يتصدر كل شيء.. لكن من الملاحظ أن الدراسات حول الهوية كثيراً ما بيّنت أهمية المؤسسات في بناء الهوية. وهذا لا يمنع من الإقرار بأن بعض الفطابات في الموضوع تفتق مين تغيب بسهولة دور الإكراهات الاجتماعية و سلطة المؤسسات. وإذا كان بناء الهوية يتم فصوصاً في التراثبية التي ينظم عبرها كل شفص انتماءاته المفتلة، فإنه من جانب آخر يمكن لبعض الهويات الجماعية أن تهيمن على هذا الشفص وتتحكم فيه. ذلك أن الهويات -

¹¹ - ج. ك. كوفمان: ابتكار الذات، نظرية في الهوية، طبع أرمون كولان، 2004. و كوفمان هو عالم اجتماع برز في العقدين الأخيرين، وألف خصوصاً في سوسولوجيا الأسرة.

¹² - أ. إيرنبرغ: التعب من الذات. الاكتئاب والمجتمع. نشر أوديل جاكوب، 1998، وطبعة أخرى في 2000.

¹³ - يتحدث بيدن عن "الحداثة المتقدمة" وليس عن (ما بعد الحداثة)، لأن هذه المرحلة الجديدة لا تشكل قطيعة مع الحداثة بقدر ما تمثل شكلها الأقصى والأكثر تطرفاً.

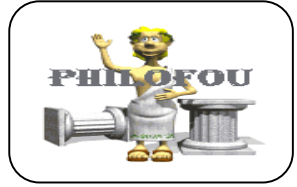
¹⁴ - من جهته حاول الفيلسوف الكندي شارل تايلور في كتابه "أصول الأنا" أن يتتبع نشأة الهوية الحديثة والفردانية عبر تاريخ الفلسفة وتاريخ العقليات وبحسبه فإن الهوية الحديثة ترتكز على ثلاثة جوانب:

أولاً: اكتشاف أو ابتكار السريرة الداخلية) القديس أغسطين، ومونتيني، وديكارث، ثم جون لوك. فقد كان دور هؤلاء حاسماً، إذ بدأ الإنسان شيئاً فشيئاً يتعلم أن ينظر إلى نفسه باعتباره "أنا" باطني.

ثانياً: تئمين الحياة العادية (ودور البروتستانتية هام هنا، لأنها تئمين الحياة المادية عبر: العمل، وصناعة الأشياء المفيدة في الحياة، والأسرة، والزواج...).

ثالثاً: علمنة المجتمع. وكان من المفروض -عند تايلور- ألا تحطم الفردانية التي تميز مجتمعاتنا الحديثة الروابط التي توجد بين الناس.

¹⁵ - في الحلقة الدراسية التي أدارها بمعهد فرنسا، سنة 1974/1975 حول موضوع الهوية- لم يستطع إخفاء انزعاجه من هذه الميول النرجسية التي تئمن لها نهاية قريبة،



على المستوى الجماعي- تشجيع أحياناً سياسات سكونية تقدمها غايات روعية ومفجلة. وكما لاحظ ذلك فرانسوا بايار، فإنه "لا توجد هوية طبيعية تفرض نفسها علينا بقوة الأشياء (...). بل لا يوجد إلا استراتيجيات تقوم على الهوية، يقودها نوعي فاعلون معروفون أو معينون: الحزبيون الشيوعيون الكبار من صربيا والذين تحولوا إلى وطنيين متطرفين، وكذا متطرفو الهوتو برواندا، والجميع مدعوم بمليشيا فاضة. وكذلك لا يوجد إلا أعلام أو كوايسس تتعلق بالهوية، تؤمن بها لأنها تدهشنا أو ترهبنا".

هل يجب إذن هجر مصطلح الهوية الذي ارتبط كثيراً بالأيديولوجيا، ويفتقد إلى الوضوح المفاهيمي؟ لقد بدأت الانتقادات تصب من كل اتجاه. وهذا يتن فكل مفهوم بارز دفل عصر الموضة يتعرض لمثل هذه العملات. لقد لاحظ المؤرخ ألفريد كروسير¹⁶ منذ سنة 1994 أن "كلمة الهوية اليوم من الألفاظ القليلة بدأ التي أفسدها الاستعمال". واليوم فإن مفهوم الهوية أكثر انتشاراً بكثير مما كان عليه الحال في ما مضى، مع عدد ضخم من التعابير الغامضة المستعملة أحياناً لحد الغثيان، مثل: "أزمة الهويات"، "و" فائض الهويات"، و" فائض الهويات" أو "الهويات المتعددة" و "الهوية البسيطة" و "الهوية المركبة"... إلخ، و لعلّ هذا ما دفع ر. بروباكر للقول: "لقد انهارت العلوم الاجتماعية والانسانية مستسلمة لكلمة الهوية"¹⁷. وهى الكلمة التي يتهمها بحملها الفطير لمعان متعددة.

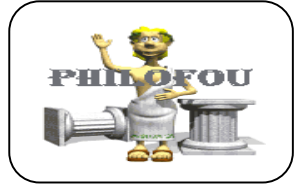
الدلالات الفلسفية للهوية:

إن التجذر في هويتى يمكننى من التعرف على كل من هم مثلى وكل من هم مختلفين عنى¹⁸. وحيث أن لكل أفر هوية فإن كل من هم مثلى سينعرفون على كمشابه لهم وسيعترفون بى واحد منهم. إن مثل هذا التعرف والاعتراف المتبادل بين الشفص ومجموعته، عبر الاشتراك في نفس الهوية، قضية بالغة الفطوره. فالرمان الأساسى ليس التميّز الذى فرضته ظروف العيش المشترك و لا فتى التمايز والتفاضل في العلاقة بالمجموعات البشرية الأفرى، و إنما تبادل الحماية داخل المجموعة لدر، الفطر المقيى أو الوهمى الذى يمثله الأفر.... الهوية هى إذن جملة العلاقات المادية و الرمزية [التواصل + الصورة + المقدس] التى تربط وتوحد عددا من الأفراد و هم فى حالة صراع ضد مجموعة مشابهة فى الجوهر مخالفة فى المظهر. هى فى استبطان الشفص لحدود المجموعة التى تعطيه الحماية التى يجب عليه حمايتها لا لشئ، إلا لتواصل بسط حمايتها عليه. نحن لا ننتمى لقبيلة، لى، لوطن، لأمة، لثقافة، بمقاسمة المنتمين إليها العلامات الفاربية المميزة فقط، ولكن بمقاسمتهم مسئولية الحماية المتبادلة و الدفاع عن الوجود المشترك وتحسين ظروفه. تتعدد بمرور الزمان فصائص المماثلة و المشابهة. فمن الألوان الصارفة التى يرسمها المماربون على أجسادهم إلى أدق كلمات السر التى يتعارف بها " الأفوه " فى هذا الجيش أو تلك العقيدة. لكنها تنطق كلها بالفطاب الأبدى، أنت منا وإلينا، نحميك و تحمينا. وفى أفر المطاف فإن لبّ الهوية هو انتماء مسئول ومسئولية انتماء..

16- أ. كروسير: الهويات المستغلة، مقال بلوموند، 28 يناير 1994.

17- ر. بروباكر: "ما وراء الهوية"، بمجلة أعمال البحث في العلوم الاجتماعية، عدد 139، سبتمبر 2001.

18- ثمة توجهان متناقضان في تكوين الهوية. الأول هو البناء على الضد؛ تتشكل هويتي على أساس الاختلاف مع الآخر وذلك على أساس جملة من العلامات الموضوعية مثل الجنس و اللون و اللباس و اللغة الخ؛ أما التوجه الثاني فهو البناء على المماثلة؛ تتشكل هويتي هنا على شبيهي مع الآخر في الشكل و اللون و اللغة و المعتقدات و التاريخ الخ.



أ- الهوية البسيطة:

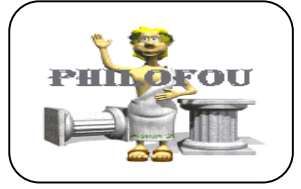
يمثلّ التراث في عومومه مفزون الهوية التي تستمد منه كلّ مقوماتها و أسسها، و نحن عندما نفكّر في الهوية باعتبارها تميل على ذاكرة الفرد و الجماعة، نفكرذ فيها باعتبارها تمظهرها و تموضعا لهذا التراث، لذلك كثيرا ما عدّ التراث تأكيد للهويّة، و يضعنا هذا المعنى أمام أطرومة تقول بضرورة العودة إلى الذاكرة إلى الماضي أي إلى التاريخ، و لكن مشكل هذه العودة أنها لاتعترف بالتاريخ و لا بمنطقه^[19]، و لذلك نجد من يعتبر هذا التأكيد هو الأساس ارتما. في أفضان الهوية البسيطة، هوية لكيان واحد، وإن وحدتها العضوية هذه متأصلة في التاريخ والعمق التراثي والحضاري. ولكن ربط الهوية العالية بالتراث الماضي يرمي بنا فالتيا في مزلق السكونية و الانغلاق، فالنظرة إلى التراث قد ترتبط بفلسفة عن الهوية قائمة على رفض الآخر. و هي نظرة تعتبر «الأخر» طرفا منفصلا عن "الذات" وبالتالي تقذف به فارجبا و تنفيه وتجاربه وهذا سيؤدي إلى انغلاق "الذات" فتعتمد كل اثنية إلى ترسيخ "هويتها" وتزكي تراثها وموروثها بالقدسية وتظهر "الهوية" بشكلها الخالد، فتصبح عملية إلغا. "الأخر" لحظة بنا. فاسمة في هذه الهوية. و كل فكر أو إنتاج مستمد من الحضارات أو الثقافات الأخرى، هو فكر "دليل" أو مستورد، وهذا ما يجعل الالتزام بالأصالة نوعا من الانمياز والانغلاق ضمن ذات مضارية غير معلومة الحدود، يفلق فصومة ثقافية أو نفسية مع كل الثقافات الأخرى. يتولّد عن التسليم بالهوية بسيطة أو الجوهر بسيط المنغلق على ذاته و الذي لا يحتاج في وجوده لغيره، دفاعا مميتا عن الفصومية، و باسم الفصومية ندافع عن جوهر الهوية الثقافية على مختلف الثقافات، و باسم ذات الانغلاق ننظر إلى كل ما هو أت من ثقافة أفرى على أنه غريب و غيريّة تههدنا، ينبغى رفضها و إقامة جدار عازل يحول دونها و التأثير فينا أو غزونا فشيبة تمولنا عما نحن عليه، أي فشيبة أن نفقد مقوماتنا فنفقد هويتنا أو نعيش أزمة هوية. و لا شك أن من بين أهم استتباعات مثل هذا الموقف القائل بالانغلاق دفاعا عن الفصومية رفض كلّ تواصل مع الآخر وإللال العنّف محلّه بما يعنيه من يأس من الإنساني أو إدعا. امتكاره أو ادعا. الأفضلية و الاعتراف بضرب واحد من التعامل يحكمه منطق الصراع أو الصدام .

بهذا المعنى يكون التعصب استتباعا من استتباعات مفاطر^[20] القول بالفصومية، عندها يتموّل القول بالفصومية هذيانا أو هوسا، وعندما يعوّض الجنون فطاب العقل و التعقل، يستميل التسامح تهاوننا و التهاون فيأنة أو هرطقة؛ و يتموّل المتعصب الناطق الرسمي باسم الهوية و التراث و باسم الموت و الميأة؛ و عندما تصاب الهوية بداء التفشّب و التمجّر و الصد. أو عندما يسكن القول بالفصومية أروقة الكهوف و المغاور و الجبال، لن تكون الهوية إلا الوجه المقنّع للهاوية.

"Rien n'est aussi dangereux que la certitude d'avoir raison. Rien ne cause autant de destruction que l'obsession d'une vérité considérée comme absolue. Tous les crimes de l'histoire sont des conséquences de quelque fanatisme. Tous les massacres ont été accomplis par vertu, au nom de la religion vraie, du nationalisme légitime, de la politique idoine, de l'idéologie juste ; bref au nom du combat contre la vérité de l'autre, du combat contre Satan."

(François Jacob -Le jeu des possibles / 1981)

¹⁹ - إن التاريخ يكون مفيدا عندما يفرغ على شكل "قوة دافعة" تحركنا إلى الأمام، غير أنه يصبح مضرا حين يأخذ شكل "قوة جاذبة" تدعونا إلى العودة إلى الوراء.
²⁰ - ليس هنالك شيء أكثر خطورة من التعصب، لأن التعصب نفي للممكن و المحتمل و الآخر، بل هو نفي للذات ذاتها، و ليس هنالك من حلّ لدرء داء التعصب إلا بعودة نور العقل و شعلة ديوجين.



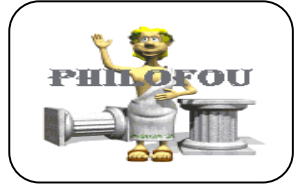
ب- الهوية المركبة:

التراث يبقى تأكيداً للهوية و لكن المشكل يكمن في طبيعة تعاملنا مع هذا التراث، و طريقة تصرفنا مع الذاكرة، لأنه مسبب شكل التعامل و مسبب طريقة التصرف تمدد الهوية، و تتغير من معناها البسيط و المنغلق ن إلى معناها المركب و المنفتح أي من معنى الذاكرة الراضة لمنطق التاريخ إلى معنى الذاكرة التاريخية^[21].

الهوية المركبة إذا : تنبني على الانطلاق من مفهوم أنه لا وجود لجوهر ثابت و أصيل و مميز لمجتمع ما أو لأمة ما أو للنم الثقافي، و فكرة الذات مقابل «الذات» لتعارض معها أو لتنفيها غير موجودة، والآفر هو أنا، والذات قابلة للتغيير والتبديل، و بنا. عليه فإن الحضارة الأفرى والمفاهيم والأيدولوجيات كلها و كل ما يحمل هذا الأفر من مفزون مضارى ممكن أن يدفل ويمتزج مع الذات فيغيرها ويطورها أو لا يطورها. وهنا لا يعود نفى الأفر جزء من منظومة بنا. الهوية بل يصبح الأفر موجود قائم داخل «الذات». وفي هذه الحالة لا تظهر فصويّة الأفر و كأنها "الغزو الثقافي" أو "الاستعمار الفكرى" بل نجد في فصويّة الأفر "فكرا أفر" نتعامل معه على انه مكملنا لنا فنتمامى معه ونتوود به بعض النظر عن اللغة أو اللون أو العرق، وتصبح الذات كونيّة لا تُحد بحدود، ويصبح فطاب الأفر هو حوار الذات، وتصبح التعدديّة أمد أهم فصائص الهوية، هوية كونيّة فارج كل الهويات، هوية مركبة، علاقتها بماضيها وحاضرها ومستقبلها مبنية على غنى تعددى لا محدود، تتجاوز كل الحدود الجغرافية والسياسية و كل التقسيمات الدينية والعرقية والمذهبية والاثنية. وأمام هذا الطرح لا يوجد فكر "مقاوم" مقابل "غزو" ولا "أصالة" مقابل "عمالة فكرية"، لا توجد ثقافة بل ثقافات، من جهة الكثرة و التنوع و الافتلاف في الفضاء الإنساني، أي من جهة "كثرة الوعدة"؛ و لا توجد ثقافات بل ثقافة من جهة "وعدة الكثرة" على مة عبارة إدغار موران.

لا يمكن أن يكون الكونى فضاء للفصويّة و لافتلاف الهويات إلا إذا اعترفت الهوية بالطابع المركب الذى يمددها و يميزها، لأن الهوية المركبة هي فرصة الإنسان الوعيد للفروج من انغلاقه و للاتقاء بالكونى، و بالفعل بفضل الطابع التركيبى للهوية يتسع أفق الانتماء، من عالم النمن الضيق - حيث الفكر الفاص و الأيدولوجيا الفاص و الثقافة الفاصة و الطقوس الفاصة- إلى عالم الارض ككل، حيث الفضاء الإنساني ككل و حيث الهوية الكوكبية. و لكن إذا كان فهم الهوية في معناها المنفتح و المركب يظهر الكونى و كأنه الفضاء الذى قد مسبب مواصفات الفصويّة، فهل من معنى لاستشكال العلاقة بين الفصويّة و الكونيّة؟ و هل من معنى للحديث عن نفى طرف للأفر؟ بل و هل من معنى للفعل الذى عبرت عنه صورة المقال؟ أي هل من معنى للحديث عن مشهد الإرهاب و إرهاب المشهد؟

²¹ يتحدث عصام العطار في كتابه كلمات عن خطر الجمود الذي قد يصيب التراث كما الهوية إذ يقول "كيف نقبل الجمود، بل كيف يمكن الجمود في عالم تتجدد معلوماته ومعطياته ومطالبه ووسائله.. باستمرار لأبد لنا من التجدد الدائم والإبداع المتواصل والجهاد المضني في كل مجال.. وإلا فقدنا حياتنا ووجودنا الفاعل المؤثر وأزاحنا الركب البشري عن طريقه وقذف بنا إلى هامش الهامش أو هوة التاريخ. فذهينا جفاء كما يذهب الزبد و غتاء السيل ومحينا من لوحة الحاضر والمستقبل وتحولنا إلى ذكرى من ذكريات الماضي البعيد" عصام العطار، كلمات، الدار الإسلامية للأعلام، بون، 1999، ص 285.



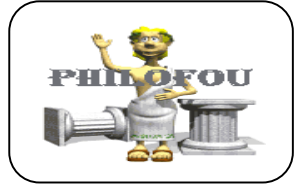
الهوية و العولمة جدل الطريدة و الصياد

بداهة العلاقة بين الفصومية و الكونية يبدو أنها لا تتعدى مدود النظر و التفكير، لأن الواقع العنيف و الصدامى للهوية البسيطة الذى ينتقل بنا من الهوية إلى الهاوية، يقابله واقع كونى إيديولوجى هيمنى، ينتقل بنا من منطق الصراع الايديولوجى إلى منطق الافتراق الثقافى، مم يدفعنا للتشكيك فى العلاقة من جديدة، لا علاقة الهوية بالعولمة فحسب، بل علاقة العولمة بالكونى ذاته.

فالكونى العولمى من جهة الواقع ليس بمثل الصفاء و البراءة التى رسم معالمها المفهوم.

و نفهم الكونى الايديولوجى بما هو كونى هيمنة، هيمنة تتخذ من الكونى أداة لتحقيق الهيمنة، ليتحرك الكونى بذلك ضمن أفق العقل الأداة، أفق المصلحة و النجاعة بدل أفق الحقيقة القيم، و بقدر ما تشتد أساليب الهيمنة العولمية أو الكونى العولمى بقدر ما تشتد مقاومة الفصوصيات و تشتد مبررات انغلاقها، لأننا فى ظل هذا الكونى العولمى نحرز الفصوصية من هاوية الهوية، و ندفع بالفصوصية نحو هاوية التفكك و الاستيلاء، ألا ينبغى أن يفهم من هذا أن سقوط الهوية فى هاوية الموت و التعصب هو فى الحقيقة رفض للتفكك و الاضطهاد، و أن الدفاع عن الفصوصية لا ينبغى أن يحمل على معنى رفض الكونى و إنما رفض كونى الهيمنة أو كونى الموت دفاعا عن كونى المياة أو كونى كلية الانسان ووجوده النوعى؟ فالعولمة تطارد الهوية وتلاقمها وتخاصرها وتجهز عليها ثم تغتذى بها، وفى دائرة هذه المطاردة تعاند الهوية أسباب الذوبان والفتن.

عندما تفتزل النظرة إلى العالم فى البعد التقنى أو ضمن أفق العقل الأداة، ولا ترى العالم و لا الانسان، بل تراه تدفقات إلكترونية ورموزاً، فلا غرابة عندها أن يتقلص الامساس بالمسؤولية الأفلاقية اتجاه الأفر،وعندما تُفتزل النظرة إلى العالم فى البعد النفعى وتفتل التوازنات البشرية مع الطبيعة، لا غرابة عندها أن تتقدم الآلة ويموت الانسان، وأن تتطور الكاميرا ويموت الفن، وأن تزداد المتامف وتموت الغابات. فى زمن العولمة ربح الانسان كل شيء و لكنه فسر ذاته، فمنطق الافتراق الذى تساهم العولمة فى تكريسه ينتج إما إنسانا مسب مواصفات السوق غولا استهلاكيا ياكل و لا يشبع أو إنسانا بلا ذاكرة و بالتالى بلا هوية. و بالفعل مع العولمة كل شيء يتسلع، وذلك من فلال إعلان مكثف ومشغول بإتقان يقوم على بيع الألام ودغدغة المشاعر وإثارة الرغبات- فى عالم محاصر بالرغبات- عن طريق مفتلف أشكال الربط بين السلعة والصحة والجمال ... حتى الأوهام سلعت؛ و إذا الوهم هو فضا، الرغبة فى العولمة تحولت مؤسسه لصنع الرغبة كما لامظ ذلك هربيرت مار كوز، فكل شيء يُطوى ويتقدم فى سرعته و يظهر إنسان العصر كالمسافر فى قطار فائق السرعة، لا يكون عن المشهد الفارجى سوى انطباعات عامة بدا تكفى لتعبير عن الرغبة التى فى الأصل لا نرغب فيها. يجد إنسان هذا العصر نفسه فى عزلة، ومع الوقت تصبح هذه العزلة أحد مظاهر الأناية المنبثقة من العولمة فى مفهومها المادى ومرجعيتها الاقتصادية النفعية الجافة، التى تتعامل مع الفرد كذات مجردة، تائهة، مفردة، مستسلمة للصورة ومنبهرة فى التكنولوجيا، وهنا عندما تفرج الكلمة من الماسوب أو الصورة من التلفزيون، فإن الانسان يستقبلها بدون تفكر أو تأمل أو تذكر، بل دون المابة لا للكلام و لا للتخاطب، ويتمول بذلك إلى مستهلك صور، أو مُستقبل كلمات مجردة من أى معنى إنسانى، وبالتالي فإن العزلة التى يجد الانسان نفسه فيها هى إحدى بذور اللامبالاة بالآخر ... يهرب من الواقع ولا



المعهد الثانوي الخاص النخبة - مسألة الفعورية و الكورتية

يتفاعل معه فيبتعد عن الواقع أو يبتعد الواقع عنه، أو يتم التفاعل مع الواقع بصورة مجردة و مبتذلة و سطحية، و هذا يبين بفصوص واقع الإنسان العربي اليوم الذي إن لم تستقطبه قوى التطرف و التعصب، استقطبه جسد روجي و هيفاء، و بعد أن كان يفكر في مقدمة ابن فلدون أصبح تفكيره لا يتجاوز حدود مؤفرة نانسي مجرم.

في عصر فقدت الكلمات معانيها في زمة السرعة، غابت اللغة و ملئت محلها الصورة و " في نظام البصري أو الفيديو قراطية صار بإمكان المرء تجاهل فطابات الحقيقة و الفلاص و إنكار الكليات والمثل، و لكن لم يعد بإمكانه إنكار قيمة الصورة... و ما يرينا العالم هو أيضا ما يعيننا عن النظر إليه^[22]."

أما كوني الحياة فنفهمه على أنه كوني مبدع فلاق منفتح، تميزه قوى الفعل لا قوى الانفعال أو هو كوني إتيقي؛ لا يزال الإنسان سؤاله بامتياز، أليس كوني الحياة هو أن يحافظ كل منا على فصوصيته دون نفي الأخر و نفي فقه في أن يعيش فصوصيته؟ بحيث تتحقق حكمه العيش معاً، حكمه تنفذ الكوني من العولمي و تفتلح الهوية من الهاوية.

مرحلة الاستخلاص

لذلك لا نجد اليوم ضرورة أكثر الحاما من ضرورة الدفول في صراع مقيقي لا يقطع مع العولمة، و إنما يقطع مع ما يكون ضد الإنسان و ضد هذا الكوكب الذي بدت بعض الفواجع الطبيعية اليوم تعبر عن سفطها من الإنسان، الضرورة ندعونا للوقوف في هذه المسيرة الصراعية مع عالمية المبادئ ضد عولمة المصالح أو مع أسنة العولمة ضد عولمة الإنسان.

و من المفيد كذلك أن نلاحظ في النهاية أنه من إراجع التاريخ يكتشف دون جهد أن الأمم والشعوب تزداد انشغالا بتاريخها وماضيها و تراثها حين يكون حاضرها مأزوماً و مؤشرات أسهمها المضارية في هبوط، فالأزمات الكبرى التي نطال "أنا" الإنسان الحاضر تدفع به ألياً إلى البحث عن "الأنا" الماضي عبر الغوص والبحث عن مسوغات تاريخية تعيد لذاته المتصدعة اعتبارها من جديد عبر اجترار الماضي "المجيد".

كما يجدر بالفلسفة اليوم أن تعيد صهر مقولة الهوية حتى لا يصيبها ما أصاب الوعي و الانية من مرض فقر المعنى، أو أن تهجر هذه المقولة التي تتحدث إلى الناس " لصالح مفاهيم أكثر تحديداً وأقل التباساً؟ و لعل هذا ما لافظه ج. ك. كوفمان عندما كشف كيف تبدو الهوية في المعرفة العادية و كأنها عبارة عن ماهية مستقلة أو معطى أولى، و يبين أن هذا بالضبط ما تنكره البحوث الاجتماعية اليوم، والتي تؤكده جميعاً على أن الهوية هي في الحقيقة نتاج تراكيب معين. ورغم ذلك من الصعب أن نهجر مصطلحاً يعكس -في العمق- مشكلة اجتماعية، وإن كان في نفسه غامضاً^[23]. لقد بدأ المفهوم في التصدع كما كان واقع الهوية، و لكن أليست الكتابة ضد مفهوم الهوية أو الدعوة إلى هجر هذه المقولة من الفلسفة نوعاً من الكلام عنها؟ ثم أليس من اللازم التظن على المواقف الراضة لمقولة الهوية كما طال تظننا من أصابه دا. الهوس بها؟

²² - ريجيس ديبيري- حياة الصورة و موتها- ص289.
²³ - من المؤشرات على هذا التحول صدور كتاب حديث بهذا العنوان: هستريا الهوية أ.دوبان- دار لوشيشغش ميدي، 2004.